المحاضرة الثالثة:

ظهور الإخوة بربروس في سواحل شمال إفريقيا:

يعود وجود الإخوة بربروس في شمال إفريقيا إلى استقرار عروج في مصر ودخوله في خدمة سلطانها بداية من القرن ١٦م بعد هزيمة الأمير قرقود في صراعه مع أخيه السلطان سليم الأول سنة ١٥١٢، وكان عروج مقربا من الأمير قرقود فخاف على نفسه من مضايقة السلطان العثماني، الأمر الذي دفع بعروج إلى الهروب والتوجه نحو سواحل تونس حيث اتخذ من جزيرة جربة مركزا له وهناك لحق به أخوه خير الدين وإسحاق وأصبحت لهم العديد من السفن والمستودعات سرعان ما توجها إلى السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد فقالوا له "نريد أن تتفضل علينا بمكان نحمي فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيد المسلمون من ذلك وتنتعش التجارة كما ندفع لخزينة الدولة ثمن ما نحوزه من الغنائم" فأجابهم سلطان تونس قائلا "إن ما تقولونه معقول جدا، فأهلا وسهلا بكم البلد بلدكم"، وقدما له الهدايا ومنحهما مقابل ذلك مكانا يجعلانه مقرا لهما ومنطلقا لنشاطهما البحري وهو ميناء حلق الوادي البعيد عن البحر المتوسط بنحو ميلين، ذو الأهمية الاستراتيجية حيث يتوفر على مناخ مناسب للقيام بالجهاد البحري مقابل دفعهما لخمس الغنائم (٥/١) فرضي عروج بذلك. وبهذا يكون الإخوة بربروس قد تحصلوا على مكان أمين وقريب عن طريق الملاحة، فازدادت بذلك أعمالهم وتمكنوا من إنشاء أسطول مكون من ١٢ إلى ١٤ سفينة وحوالي ١٠٠٠ بحار.

لقد لعب الإخوة بربروس دورا كبيرا بعد استقرارهم في حلق الوادي وذلك من خلال إنقاذ ونقل العديد من المسلمين الفارين من الأندلس انطلاقا من

السواحل الشمالية لإسبانيا باتجاه شمال إفريقيا.

كما ذاع صيت الإخوة بربروس بفضل الأعمال والبطولات التي حققوها لذلك تطلع إليهم سكان المدن الساحلية للمغرب الأوسط بغية الاستنجادبهما من أجل تخليصهم من الاحتلال الإسباني ليكونوا قد ساهموا في تعجيل الأحداث السياسية بالمغرب العربي خلال العقد الثاني من القرن ١٦م.

نشاط الإخوة بربروس في المغرب الأوسط:

تعود بدايات العلاقات الجزائرية العثمانية إلى حادثة استنجاد أهل بجاية من البحارة العثمانيين لمساعدتهم ونجدتهم من قبضة الإسبان الذين احتلوا أراضيهم وفرضوا عليهم ضرائب كثيرة ومثقلة فحسب ابن أبي الضياف، فإن علماء وأعيان مدينة بجاية طلبوا من عروج إنقاذ المدينة وتحريرها من الإسبان في رسالة أرسلت إلى خير الدين وعروج حيث كانا متجهان إلى الأندلس لإنقاذ المسلمين، وفي هذه الأثناء وصلهم وفد من مدينة بجاية يحمل رسالة جاء فيها "... إن كان ثمة مغيث فيكن منكم أيها المجاهدون الأبطال، لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة ، أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم، لما نلقاه من ظلم الإسبان فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم جعلكم الله سببا لخلاصنا بتسليمه إيانا إليكم فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوابتخليصنا من هؤلاء الكفار".

بداية النشاط العسكري للإخوة بربروس في بجاية عام ١٥١٢:

على إثر الدعوة التي تلقاها عروج من أهل وأعيان بجاية اتجه هذا الأخير على رأس جيش بحري صغير من أجل تحريرها، وحسب المؤرخ هايدو فإن الأسطول كان تعداده حوالي ١٢ سفينة بحرية محملة بالمدفعية والذخيرة وألف جندي تركي وبعض الأهالي الذين عرضوا يد المساعدة. وقد بدأ بالهجوم على

المدينة برا باستعمال المدفعية. وتم وضع حصار شديد على المدينة دام ثمانية أيام قبل بدأ عملية الاقتحام، وفي أثناء ذلك أصابت قذيفة عروج وشقيقه إلياس، مما أدى إلى مقتل القائد إلياس رايس وبتر ذراع عروج الأيسر الأمر الذي أدى إلى وقف القتال وانسحاب القوات البرية والبحرية. ففشلت بذلك أولى محاولات الإخوة بربروس لتحرير بجاية وانسحب الجميع إلى حلق الوادي.

وكان لهذه الهزيمة وقع كبير في نفسية الإخوة بربروس بعد فقدان الأخ الأصغر إلياس رايس هذا من جهة، من جهة ثانية مكنت الهزيمة من إعادة توحيد الصفوف وتنسيق الجهود، كما استطاعوا من معرفة مدى قوة الأسطول الإسباني من نقاط قوته وضعفه بهدف تحسين خططهم وتكتيكاتهم العسكرية بغية مواجهتهم مستقبلا خاصة بعد أن أدرك عروج الفرق بين العمليات العسكرية ضد جيوش وحاميات عسكرية نظامية مهيأة بكل الوسائل وبين عمليات القرصنة ضد السفن التجارية أو العمليات العسكرية ضد أهداف ثابتة غير متحركة كالإغارة على المدن والموانئ الصغيرة كما أدرك عروج أن محاصرة بجاية وقاعدته بعيدة عن حلق الوادي يؤثر سلبا على الحملة، فراح يبحث عن موقع آخر يساعدهم في إدارة المعارك والحملات ويكون قريبا من هذه الحملات فوقع الاختيار على جيجل.

جيجل قاعدة بحرية للإخوة بربروس وفتحها عام ١٥١٤:

كانت جيجل تحت سيطرة الأميرال أندريا دوريا من منطقة جنوة الإيطالية حيث جعلها مركزا عسكريا وتجاريا بين إيطاليا وإفريقيا وتذكر المصادر التاريخية أن أعيان وأهالي جيجل كانوا قد طلبوا من الإخوة بربروس مساعدتهم لطرد القراصنة الجنويين، فلبى الإخوة نداء الأهالي، لذلك قرر عروج توجيه

حملة لتحرير جيجل بعد هزيمته في بجاية وذلك للأسباب التالية:

١- تتمتع بموقع هام حيث قربها من بجاية.

٢- الحصانة الجغرافية والطبيعية وصعوبة التضاريس بها.

٣- معرفة الأتراك للمنطقة.

٤- موقعها الاستراتيجي العام في عمق البحر الأبيض المتوسط حيث يمكنه أن يتوغل أكثر في الجهة القريبة للبحر الأبيض المتوسط،هذا بالإضافة إلى أنه أراد أن يستقل ويتخلص من نفوذ السلطان الحفصي في تونس.

لقد بادر الإخوة بربروسبالهجوم على مدينة جيجل برا وبحرا بمساعدة قوات من الأهالي كان يقودها خيرالدين وأحمد بن القاضي وتمكن عروج من السيطرة على المدينة بسهولة والدخول إليها محققا غنائم كثيرة حيث تمكن من أسر عدد كبير يقدر بحوالي ٦٠٠ شخص وأرسلهم إلى السلطان العثماني سليم الأول، بعد أن فتح عروج مدينة جيجل بايع سكان المدينة عروج كحاكم عليهم وحول مركز قاعدته العسكرية من جربة بتونس إلى مدينة جيجل لموقعها الاستراتيجي والقريب من ساحة المعركة إضافة إلى خلافة مع السلطان الحفصي الذي امتنع عن إمداد عروج بالبارود أثناء حصار بجاية. وبذلك أتاحت إقامة الإخوة بربروس في جيجل إمكانية معرفة أحوال المغرب الأوسط والتعرف على قبائلها مثل قبائل بني عباس وآل القاضي وسلاطين جبال كوكو. ومساعدتهم في حل النزاع فيما بينهم.

الفتح الثاني لمدينة بجاية ١٥١٤:

بعد تحرير جيجل توجه الإخوة بربروس مرة ثانية نحو بجاية بمساعدة القبائل المحلية بزعامة ابن القاضي في أوت ١٥١٤ وتمكنوا من محاصرة

القوات الإسبانية بهجوم عروج بحرا أما ابن القاضي فيقوم بالهجوم برا من أجل السيطرة على إحدى قلاعها لكن دون جدوى، سرعان ما وصل المدد الإسباني بحوالي ١٠٠ سفينة على متنها ١٠ آلاف جندي إسباني، بقيادة ماشين دي فانتورا. وأمام هذا الوضع طلب عروج من السلطان الحفصي في تونس الدعم، لكن لم يصله، ويذكر ابن الوزان أن القبائل التي ذهبت لنصرته ومساعدته تركته وذهبت لزراعة الحقول فلم يجد من حل سوى الفرار والعودة لمدينة جيجل المحصنة.

لقد فشل الإخوة بربروس في هذه الحملة بسبب تماطل الحاكم الحفصي في إمدادهم بالمؤونة والذخيرة فرغم الهزيمة فإن السلطان العثماني قد اعترف بجهادهم البحري وأهداهم ٢٤ سفينة حربية وهذا دليل عن بداية توطيد العلاقات بين السلطان العثماني سليم الأول والإخوة بربروس.

تحرير مدينة الجزائر ١٥١٦:

كانت مدينة الجزائر محتلة من طرف الإسبان منذ عام ١٥١٠، وبعد وفاة الملك الإسباني فرديناند عام ١٥١٦ خلفه في الحكم على العرش الإسباني شاب نمساوي الأصل فلامندي الذي لم تكن له شعبية كبيرة، لذلك رأى سكان وأعيان مدينة الجزائر أنه قد حان الوقت وجاءت الفرصة للتخلص من قبضة الإسبان في حصن البنيون، فتوجه وفد للإخوة بربروس (عروج) برئاسة سالم التومي بهدف الاستنجاد وتحقيق الهدف المنشود وبطبيعة الحال فإن حال عروج قد لبى الدعوة وجاء على رأس جيش بحري يقدر بحواي ١٦ سفينة برئاسة خير الدين ومعه ٨٠٠ جندي تركي و٣٠٠٠ جندي من الأهالي المتطوعين من مدينة الجزائر بقيادة عروج برا بالإضافة إلى ألف رجل التحقوا به عند اقترابه من

مدينة الجزائر.

عند وصوله إلى مدينة الجزائر استقبله الأهالي بحفاوة وترحيب كبيرين. وما لبث أن بدأت المؤامرات تحاك ضد عروج واشترك فيها سالم التومي بمساعدة الإسبان وأهل المدينة غير أن عروج كشف المؤامرة وسبق المتآمرين فقتل زعيمهم سالم التومي وناد جند عروج به سلطانافلجأ عروج إلى قتله بعد استفتاء العلماء بوجوب قتله لأنه يزرع الفتن داخل مدينة الجزائر، فتكمن الإخوة من إفشال الهجوم الإسباني بقيادة ديجو دو فيرا سنة ١٥١٦ وبعد النصر ازدادت قوة الأتراك في مدينة الجزائر، وعاد هذا الانتصار مكسبا لعروج الذي عمل على توطيد سلطته وقوته على مدينة الجزائر واستطاع على إثرها فتح مدينة تنس ومليانة عام ١٥١٦.

استنجاد أهل تلمسان بالإخوة بربروس واستشهاد عروج ١٥١٨:

بعد أن استولى عروج على مدينة الجزائر زحف نحو تلمسان بطلب من أعيانها لتخليصهم من تردي الأوضاع السياسية، حيث كانت تلمسان في هذه الفترة تعيش تطاحنا عائليا من أجل السلطة (الملك) وكان الصراع على أشده بين أبي حمو الثالث وابن أخيه الذي خلعه وسجنه وأعلن أبو حمو الثالث ولائه للإسبان بوهران، فاستنجد أهل تلمسان وأبو زيان من سجنه بعروج.

وفي طريقه إلى تلمسان استطاع عروج من فتح قلعة بني راشد وترك أخاه إسحاق رفقة جيش تعداده حوالي ٢٠٠ جندي وذلك من أجل تأمين خط الرجعة ثم اتجه إلى تلمسان فتم فتحها ودخولها واستقبله أهلها بكل حفاوة وترحاب سنة ١٥١٧، بعدها تمكن من الإطاحة بأبو حمو الثالث الذي هرب إلى وهران وطلب المساعدة من القوات الإسبانية وقد استطاع أبو حمو الثالث بمساعدة

القوات الإسبانية من الهجوم على قلعة بني راشد وتم قتل إسحاق وجنوده ثم ساروا إلى تلمسان وحاصروها فتمكنوا منها عام ١٥١٨ بدون صعوبة ففر عروج من تلمسان ومن معه وكان يأمل في وصول سفن أخيه خير الدين فلحق به الإسبان وحاصروه في قلعة قديمة ووقعت اشتباكات عنيفة استشهد فيها عروج عام ١٥١٨ على يد الإسبان وكان عمره أربعة وأربعين عاما ثم قطعوا رأسه وبعثوا به إلى الملك كارلوس. وبهذا يكون عروج قد نجح في إضعاف الأسرة الزيانية وتوجيه ضربة للنفوذ الإسباني. كما رسم لحلفائه الطريق من أجل إقامة نظام جديد في المغرب الأوسط.

أما أبو حمو الثالثعلى عرش الدولة الزيانية (تلمسان) مقابل أن يدفع للإسبان سنويا ١٢ ألف مثقال من الذهب و١٢ حصان.